المسرح الفرنسي في عصر النهضة

المحاضرة الثالثة: المسرح الفرنسي في عصر النهضة

كانت فرنسا مركز إشعاع حضاري عظيم في هذا العصر(بدأ تحديدا سنة 1635) المثل الأعلى الذي حاول أدباء اوروبا متابعته واحتذاءه، ويطلق على القسم الأول من هذا العصر اسم (عصر لويس الرابع عشر) وهي الفترة التي تولى في الملك لويس الرابع عشر الحكم (1643-1715) والملقب بالملك الشمس Le roi soleil لاهتمامه بالفن والأدب. وقد عد هذا العصر من أعظم العصور التي شهدها التاريخ الفرنسي إن لم يكن أعظمها على الإطلاق. لاسيما في الفترة بين(1660 و 1690)وقد امتاز هذا العصر بمركزية شديدة في المجالين السياسي والثقافي (تثبيت حكم ملكي مركزي لأول مرة-الصالونات الادبية والأكاديمية الفرنسية) فنشأ الأدب في هذا العصر في ظل الطبقة الحاكمة، وتوجه إليها ، وفرض الذوق الارستقراطي نفسه على مختلف مجالات الأدب، واعتبرت (فرساي) Versailles النموذج الفني الأمثل بما امتازت به من الفخامة والرشاقة والتناسق. على أن تألق البلاط وازدهار الحياة الاجتماعية في العاصمة باريس، ثم على حساب الطبقة الكادحة.

في هذه السنة (1635) شملت الأكاديمية الفرنسية L'académie Française بالرعاية الملكية، وظهرت أول مسرحية ذات أهمية لـ"بيير كورناي" *Pierre Corneille* هي (ميديا) Médée وهي مأساة من خمسة فصول عرضت أول مرة سنة (1635)، وفي السنة التي تلت أثارت مسرحية (السيد) Le Cid لنفس المؤلف عاصفة من الجدل والنقد أظهرت فكرة تمكن الصواب والقاعدة كمقياس للأدب وتغليبها على مقياس التأثير. ومع أن "كورناي" أصاب نجاحا في المسرحية التي اقتبسها عن المسرحي "غيلام دي كاسترو" *Guilem de Castro* الاسباني Las) (Mocedades del Cid فإنه لم يكرر في مسرحياته اللاحقة ما أظهره من جرأة وحرية تصرف، وعدت مسرحياته روائع ناجحة نظرا لتقيدها بالقواعد الكلاسيكية.

لم تكن مسرحية (السيد) سوى محاولة للتفرع عن الأصل الذي دعا إليه كل من "بولو" *Boileau* والكاردينال "ريشليو" وهو ضرورة الالتزام بقواعد أرسطو المزعومة في الملهاة والملهاة. فجاءت "التراجيكوميديا" Tragicomédie والملهاة الدامعة La Comédie Larmoyante في القرن الثامن عشر كاستمرار لهذا النوع.

وبعد مسرحية (السيد) ظهرت في فرنسا سلسلة من الأعمال المسرحية والنقدية ضمنت لأصحابها الخلود في عالم الأدب من هؤلاء "راسين" *Racine* و"موليير" *Molière* "ولافونتين" La *Fontaine* "وباسكال" *Pascal* "وبوالو" *Boileau* و"لاروشفوكو" *La Rochefoucauld* . وقد سيطرت على هذا العصر بوجه عام الرغبة في تقليد النماذج السلفية، ولكنه لم يكن تقليدا أعمى، إذ كان له طابع خاص، وظهرت فيه اصطفائية ذكية بالنسبة للقواعد الكلاسيكية،

فمثلا كانت الجوقة جزءا لا يتجزأ من المسرحية اليونانية، إلا أن المسرحية الكلاسيكية لم تلزم نفسها غالبا بذلك.

كان الهدفان الأساسيان لأدب عصر الملك لويس الرابع عشر توفير الإيهام بالواقع L'illusion du réel وتطبيق مبادئ الصنعة اللفظية، والتقى النتاج الأدبي لهذا العصر عند عدة مناح منها: الصقل وسرعة الحركة والتركيز والميل إلى اختيار النمط الشائع والقاعدة العامة، وتجنب الأهواء المزاجية، والنزعات الشاذة. وقد عرض الشاعر "بوالو" في قصيدته المطولة (الفن الشعري) L'art Poétique أهم المعتقدات الأدبية لهذا العصر وفي مقدمتها:

أ-مراعاة صارمة لمبدأ الوحدات الثلاث لأنه الأوحد القادر على خلق الإيهام بالواقع.

ب-الاهتمام بالشكل والأناقة والصقل ظاهريا على الأقل.

ومع هذه الصرامة فإن مجال الممارسة عرف بعض التيسيرات أهما:

1-إباحة وجود عقدة ثانوية، أو أكثر بشرط ألا يضعف ذلك من العقدة الأساسية، وألا تشوه وحدة الموضوع.

2-قبول اتساع وحدة الزمن، فلا تقف عند دورة الشمس-كما قال أرسطو- بل قد تمتد إلى ثلاث دورات، أي ثلاثة أيام.

3-قبول أن يمتد نطاق وحدة المكان، بحيث يشمل المدينة بأسرها، أو قصرا بأكمله، حتى إذا تغير المكان "المنظر" لم يخرج عند حدود المدينة، أو حدود القصر الذي تقع فيه الأحداث.

4-الإبقاء على عظمة الشخصيات، ولكن لا مانع من اتخاذ الوصيفات والأصدقاء في أدوار لا تعد تافهة.

5-الاستغناء عن دور المجموعات والأناشيد.

وبوجه عام عكست خصائص الأدب في هذا العصر طبيعة المجتمع الأرستقراطي، فالمهم هو ضبط السلوك الخارجي والتصرف الاجتماعي ولو على حساب الأخلاق الداخلية، والعناية المفرطة بالمنظر والشكل ولو على حساب الجوهر والمضمون، وأصبحت الدعوة إلى الأخلاق سمة النتاج الأدبي المقبول اجتماعيا، حتى قال بعضهم "إن المسرح ابتدع ليكون الأخلاق". مهمة الأديب إذن أصبحت مهمة اجتماعية تدور حول تهذيب الأخلاق وتربية النشء الصالح

من جهة، وتحدد له الكلاسيكية قواعد الفن لبلوغ المرامي من جهة أخرى، ولذلك سمين الكلاسيكية بمدرسة المحاكاة المقننة. فالكاتب المسرحي في هذه المملكة كالجندي تماما، إذ هو مطالب بأداء مهمته الاجتماعية السامية، ومرغم على معرفة واحترام القواعد الضرورية في كل إبداع فني يستحق النجاح والخلود منها مشابهة الحق La Vraisemblance، وقواعد اللياقة الأدبية La Bienséance، وهذا ما عبر عنه الشاعر والناقد الفرنسي "جون شابلان" *Jean Chapelain* في قوله:" بقدر ما يقترب الشعر من القواعد، بقدر ما يصير حقيقيا، لأنه ينمو –وقتئذ- نحو الكمال".

كان المسرح الفرنسي في هذا العصر شبيها بالمسرح اليوناني القديم، حيث كان يتجه إلى تسلية الخاصة، ومن حيث إنه كان يتناول المشكلات النفسية والأزمات الروحية. وقد اختصت الملهاة مثلا في معظم أحوالها بإضحاك المجتمع على سخافاته، وأمراضه السلوكية حتى أطلقوا على "موليير" المشرع وواضع قوانين السلوك للمجتمع".

وإن صح أن المسرح الكلاسيكي كان يتجه إلى تسلية الخاصة، فقد نجح في رفع طبقات الشعب إلى منزلة هذه الخاصة بما كانت تقدمه إلى تلك الطبقات الشعبية في أزمات الروح والمشكلات النفسية في عالم المأساة، وما كانت تشرح به نفوس الناس وسلوكاتهم، وأخلاق النماذج البشرية في عالم الملهاة. وأعظم من يمثل المأساة الكلاسيكية "كورناي"، ونجمها اللامع "راسين". وعموما فإن كتاب التراجيديا كانوا يبحثون عن إثارة العواطف وتمجيد العقل، ومن جهة أخرى فإن مسرحياتهم تسمح لأولئك النظارة بالتخلص من تلك العواطف عن طريق التطهير Catharsis ، كما أن كتاب الكوميديا كانوا بدورهم يبحثون عن التربية بواسطة طريق الضحك، فالأمر يتعلق بالنسبة للنظارة بالضحك على شخصيات سخيفة، ولكن أيضا لفهم أكثر الحياة الإنسانية، ويصبحوا بالتالي هم أنفسهم أفضل مما كانوا عليه سابقا.

معظم مسرحيات القرن السابع عشر(تراجيديا أو كوميديا) كتب شعرا وتحديدا بنظام Alexandrins (بحر شعري من إثني عشر مقطع صوتي) مع قوافي مسطحة. Rimes Plates أغلب المسرحيات استخدمت مجموعة من الإجراءات الأسلوبية الشعرية كاستغلال الأشطر Hémistiches والنظام المزدوج Rythme Binaire والصور الأسلوبية (التجسيد، المشابهة، التكرار، المقابلة، الإيحاء...) والمجانسة Allitération والسجع Assonance .